الفصل الثانى عشر

تأملات أخيرة بعد النفى

٨٥ - المؤلف والشعر

وإذْ قد أَتَيْنا على وَصْفِ بعضِ الحادثات بالأَنْدَلُس، ورتبةِ دَوْلَتِنا، وما انتَهَتْ إليه فيها أحكامُنا، حسبما ساعَدَتْنا عليه أذْهانُنا، ونالَتْهُ مَقْدرَتُنا، إلى انصرام الأَمَد، فَلْنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلَّق بذلك من شِعْرٍ نَظَّمْناهُ وَقْتَ فراغ البال وجمام النفس، مع ما أعان على ذلك من النَّظَر إلى كلِّ مُسْتَحْسَنٍ، والسُّرُور بطيبِ كلِّ خَبَر.

على أنَّنى لم أنْتَحِلْهُ قَبْلُ، ولا كان من شأنى الأَخْذُ به، إلاَّ على سبيل الاستطراف والإطناب فى وَصْفِ شىءٍ أريدُ نَعْتَهُ. فَرُبَّما صَنَعْتُ فى البَيْتِ أو البَيْتَيْن أيَّاماً، أُحْضِرُ لها ذِهْنى، وأحدُّ فِكْرى؛ فتصدع بعد كَدٍّ، وما أكادُ، كالشىءِ المُسْتَغْرَب من غَيْرِ مَعْدِنِه. فيُنْشِدُها الكَتَبَةُ فى مجالِس الاحتفال للراحات، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشُّغْل، كالذى يأخُذُ به الملوكُ أنْفُسَهُمْ فى ساعات الدَّعَة؛ ونضيف معها لمعاً من آداب وسير تحضرنى، مما يختلج فى الخاطر ويجريها الإنسان بصحبة الزمان وتَنَقُّلِه فى الحالات. وقيل لرجل: «من أين لك هذا العلم؟» فقال: «قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً!».

٨٦ - استطراد المؤلِّف إلى الكلام عن طالعِه ومصيره

وكُلُّ شىءٍ إنَّما يَنْطَبِعُ فى النشأة وحِينِ المَوْلِد. ولقد طالَعْتُ من مَوْلِدِى أشياءَ مَيَّزْتُها من طبائعى وأخلاقى، على أنَّ واضِعِيهِ أَلْفُوهُ ونَحْنُ فى حالِ الطفولِيَّة، * [ق ٧١ ب] لم يُوصَل إذ ذاك إلى معرفة شىءٍ من أحوالى. وكتَمَهُ عنِّى سَمَاجَةُ مُدَّةً، حتَّى وقع السَّفر إلى يدى على غَيْرِ ظَنٍّ؛ فشَقَّ ذلك عليه، خَوْفاً علىَّ من العُجْب بما كان فيه مَنْصُوصًا من السعادة. فطالَعْتُ منه عجائبَ وغَرائبَ، إذْ كان المَوْلِدُ رَصْدى؛ وكان الطالِعُ الحوتَ بأَرْبَع دَرَج، وصاحِبُه المُشْتَرى فى الحادِى عَشَر مع الزُّهَرَة؛ وسَقَطَتْ الشمسُ فى الدَّلْو مع عُطارِد؛ واتَّفَقَت النَّحْسَان فى الثَّوْر بَيْتَ الأُخُوَّة والقَرَابة؛ وصار القَمَرُ هَيْلاجاً إذْ كان فى السابع من البُرُوج، فصَلُحَ لذلك لأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّر النَّوْبَة؛ والزُّهَرةُ كَدْخُدَاهُ، دُلَّتْ بمَكانِها - والله أعْلَم - على قَوْلِهم، على سِنِيها الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدُها المُشْتَرى سِنِيهِ الصُّغْرَى اثنَىْ عَشَرَ عاماً؛ فجميعُ ذلك سبعةٌ وخمسون عامًا. والله بغيْبِه أعْلَمُ!

وتَكَلَّمَ «الطالِعُ» على أرْبابِ مُثَلَّثاتِ النَّيِّرِ الدالَّةِ على تقسيم السعادة للمَوْلود؛ فكانَ

رَبُّ المُثلثَّـة الأُولَى زُحَـل، ومَعهُ المرّيخ في بَيْتِ غُرُوبِهِ، فَـدلَّ على أنَّ الثُّلث الأَوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيـرِ والتَّنْغيـص والتكْدِيرِ، ومِثلُهُ الثُّلثُ الثاني الذى لعُطارد، إذْ كان في بَـيْتِ الـشَّـقَـاءِ والهُـمُوم، مَحْسُـورًا بَيْنَ النَّحْسَـيْـين، فَدلّ على مِثْل ذلك وأشَـدّ، كالذى تَبَيَّنَ الآنَ، والقسمةُ الثالثةُ للمُشْتَرِى، وهو في بيت الرَّجاء والسعَّادةِ، فَدَلَّ على ضِدِّ ذلك كُلِّه، وأطْنَبَ في وَصْفِ السعادةِ فيه، لاأدْرِي كيف هو، إذْ هو بعيدٌ في القِياس، قريبٌ في قدرة الله.

ثمّ وَصَفَ خَبَرَ الأمراضِ، فدَلَّ على الأمراض النَّفْسانِّية من السَّوْداءِ وحِدْثانِ النفس بأشياءَ مُخَوِّفةٍ.

وذكَرَ خَبَرَ البَنين، فقال: بحيث شَـهِدَ شَـاهِدٌ يكونُ الوَلَدُ، وشَهِدَ آخرُ بأنَّ لا وَلَد. ودَلَّ على القِلَّةِ، إلاَّ أنَّه لابُدَّ من كَوْنِهم، وإنْ كان ما ذَكَرْناهُ دليلًا على قِلَّتِهِمْ، ورُبَّما كان ذلك في نِصْفِ العُمُرِ. فظَهَرَ ذلك بنَشْأتِهم الآنَ.

وذَكَـرَ خَبَـرَ الزهادة في الحرام كُلِّه، وحَقٌّ ذلك لكُلِّ أحَدٍ، غَيْرَ أنَّ الذى يَتَهَيَّأُ في نَصْبةِ المَوْلِدِ أغْلَبُ على الطَّبْع، ثمَّ نَظَرَ في وجْهِ التَّعَفُّفِ، والبَحْث على ما أوْجَبَ ذلك، وأنَّ تلك الزَّهادة من تِبْقَاءِ نَفْسِـهِ مع سلامةِ المُعْتَقَد، فإنَّ الزُّهَرَةَ، إذْ كانت في أحد بيوتِ زُحَل، ظَهَرَ على المَوْلُودِ قُبْحُ ذلك الشَّرَه، فَتَعَفَّفَ. وقال إنَّ حِكْمَتَهُ في يدَيْهِ أكْثر منها في لِسانِهِ.

ورأى صاحِبَ بَيْتِ العُرْس، وهو عُطارد، في بيت زُحَل، فدَلَّ على المَيْلِ إلى الصِّغار ذوى الطبائـع العُطارِدِيَّةِ، مع مُنافَرَةٍ لا تُبيحُهُ الشَّـرِيعةُ، إذْ لم يَكُنْ بَيْنَ صاحِبِ العُرْسِ وصاحِبِ الطَّالِعِ مُواصَلَةٌ ولا مُشاكَلَةٌ.

كُلُّ هذا قد عَلِمْناهُ من أنْفُسِنا، كأنهُ حاضِرٌ معنا، ومطَّلِعٌ علينا. فلم نَشُكَّ في صحَّتِه بإذْنِ الله، فسُبْحانَ مُصَرِّفُ الأيّام ومُجْرِى الأفْلاكِ!

(الفَلَكُ ما استدار من الأشياءِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] وسَمَّاها سَمَاءً، فإنَّ العَـرَبَ تدعو كلَّ ما ارتفع سَمَاءً، فهي، لارْتِفاعها علينا، سماءٌ، وهَيْمَنَتُها: فَلَكٌ، لاسَماء).

٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم

ولا يَعْلَم الغيْب إلَّا الله، غَيرَ أنَّ أهلِ العَقْل منهم يقولون إنَّما هى دلائلُ على الخيْر والشـَّر، ولا يُعْلَمُ بها الجَلِيَّةُ، كالغَيْثِ المُنْزَل دَليلٌ على نبات الزرع به، أو كالنار المشتعِلة بمكان عَلَمٌ أنهَّا مُحْرِقةٌ. ويحْتَجُّون بحديث الرسول – عليه السلام – في قوله: أقْبَلَتْ بحرية، فتشاءمت، فتلك عـينٌ غديقـةٌ. ومُعاناةُ الحكيم الماهِر دَليلٌ على بُرْئِه، يرجى له ذلـك إن أخَّرَتْه المُدَّة. وجىءَ بطبيبِ عالم إلى أحد العُظماءِ من بلاد الهِنْد، فلمّا شكا المريضُ إليه، قال له الحكيم: «قد بريتَ بحولِ الله!» فلما أعْلَمه التُّرْجُمانُ بقوله، قال العَليلُ: «إن شاء الله!» فأجابَه الحكيمُ: «إنَّ الله قَدْ شاءَ: لم يسُقْنى إليك من أرضِ الهِنْد إلَّا وقد قضى بصحَّتك!».

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٣ و سورة يس الآية ٤٠.

وقـد أغْلَـى[1] أهْلُ الهِنْد فى هذا العِلْم، ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَـرْعاً، حتَّى إن فيهم من لايوَلِّى مَمْلَكَتهـم إلاَّ مَنْ شـاكَلَ طالِعُه طالِعَ الدولة، وهم يزعمون أنَّ طالِـعَ المَلِك، إن لم يكن وَتَدًا من أوْتَادِ الـمَمْلَكَة، أو كان منها ثانى عَشـرَ أو سادِسًـا، وأمْكِنةُ الكواكب غَيْرُ مُتَّفِقةٍ * [ق ٧٢ أ] لذلك، فإنَّهُ ينحِسُـها، ولو بلغ الجهْدُ من الاحتياطِ عليهـا : إمَّا تُهْلِكهُ، أو يُهْلِكها، ضَرورةً تسوقُه الأَقدارُ إليها. فكانوا يتخيَّرُون الطوالع قبلِ اختيار العقول والمذاهب، يَرَوْنَ أنَّ القَدَرَ أغْلَبُ من الرأى، ويقولون: «لك سعادةُ الدولة ومُساعَدةُ الأقدار! هَيَّأَتْ لنا هَذِهِ الآراءَ لطولِ المُدَد».

ثـمَّ إنَّهم يزعمـون أنَّ العُمْرَ الطبيعيَّ مائة وعشـرون عامًا، وأنَّ القواطِـعَ التى تكون قَبْلَهُ إنَّما هى من أحداثٍ داخِلةٍ على الإنسـان، عَرَضيَّةً، إمَّا من فسـاد المزاج، فتخورُ الطبيعة، إذ جعلوا الأربع طبائع التى فى الإنسان قوامَه كأركـانِ البَيْت، فمَتَى فسدَتْ منها طبيعةٌ، اعتَلَّ الجِسْـم، وإن تغـيَّرت كلُّها، مـات . وجعلوها مُشـاكِلةً للأَزْمِنـة: فالدَّمُ رَبيعـىٌّ، والبَلْغَمُ شِـتْوىٌّ، والصَّفْراء صَيْفِيَّةٌ، والسَّـوْداءُ خَريفيَّةٌ، فمَنْ عالَجَ كلَّ زمـانٍ منها بضدِّه من الأغْذِية والأَدْوية، فقد أصاب . ولا باقى مع الله!

و (لَـمَّا) احتَجَّ علَيهم بالذى يموت فجأَةً، أو فى زَحْمَةٍ، أو بأَرَقِّ سبب، وهو يظهر صحيح الجِسْـم، أضافوا إلى الطِّبِّ من عِلْم النجوم، واتَّفق رأيُهم أن لا فَلْسَـفة تتمُّ حتَّى يجمعُها، وأنَّ لا قِوامَ لأحدِ العِلْمَين دون الآخَر، فقالوا: إنَّما ذلك من الهيَالِيجِ السـاقِطة، فإنَّ الـمَوْلودَ، إذا كانت هَيَاليجُه ساهرةً، صحَّ ارتباطُ نفسه بجسمه، فلا تخرجُ إلاَّ عنْ مَشَقَّة مع تمام المُدَّة التى تدُلُّ عليها العَطِيَّة. وإن كانت هَيَاليجُهُ سـاقِطةً كلَّها، عرض للموت بأَرَقِّ سَـبَب. فإن لم يكن له هَيْلاج، سُيِّرت الـمَطْلَعيَّة وعُدَّ لها أعوامٌ، ويكون القَطْعُ عند تَمامِها، وقد يكون فى تَحَاويلِ السِّـنينَ، وإن تتـمَّ العَطِيَّة عند انْتِهاء صاحـب حَدِّ الدَّرجَة إلى موضعِ نحسٍ، قَطعٌ أو شـبه القَطْع، إن لم تُسَاعِدْه النجومُ السعيدةُ. وسَمَّوْهُ الجَانْ بَخْتان، وهو دليلُ الحَياة بإذن الله.

ومنهـم مـن رأى ذلـك قوَّةً لنفســه * [ق ٧٢ ب] ، ورضِىَ بما قسـم له البـارئ – عزَّ وجَلَّ– ، فـلا ينقد على نفســه، ويعيــش طيب العَيْش، يدرى أن لاقاطِـعَ يقطع به فى تلك الـمُدَّة، ويُشَـجِّع لقول علىٍّ – رضى الله عنه – لرجُلٍ قد أسَــنَّ : «أيَّة شجاعة قد فاتَتْكَ ! » يعنى: لو أنَّكَ قَبْلَ النوم تدرى أنَّ هذا يكون عُمُرَكَ لَم تُبالِ.

وأمَّـا أنا، فأقول إنه تأنيسٌ، مالم تقرب المُدَّة، وزيادةٌ فى ألَم الـمَنِيَّة إذا اقْتَرَبَتْ. ولايكون الطِّبُّ إلاَّ ليُصِحَّ البَدَنَ مُدَّة الحياة لكراهيَّة العَيْشِ فى نكدٍ. وأمَّا لِدَفْعِ أجَلٍ، فلا ينفع شىءٌ.

٨٨ - آراء طبية فى الأغذية والنبيذ

قال بعض الحُكماءِ: «الناس يعيشوا[2] ليأكُلوا، ونَحْنُ نأْكُلُ لِنَعِيشَ! فتأَمَّلْ مَعْناهُ.

وجمـع أحَدُ الملوك أطِبَّاءَهُ، فقال لهــم : «أعْلِمونى بالدواءِ الذى لا داءَ معه! » فكلُّهم تكلَّم

(١) أصل «اغلوا» .

(٢) كذا فى الأصل.

على الأَدْوية والمُعاناةِ بها، غَيْرَ واحدٍ منهم كان أكبرهم سـنًّا، فردَّ عليهم أن: «ليس عن هذا سألكم الأميرُ! ولكِنَّهُ يأذنُ لى فى الكلام؟» قال: «قُلْ! فأَنْتُمْ مَعْدِنُ الحكْمة والفَلْسَفَة!» فقال «أيُّها الأمير! إنَّ الدواءَ الذى لا داءَ معه أن تكونَ، عِنْدَ أخْذِك للغذاءِ، تَتْرُكُ منه بقَدْرِ ما تتمُّ به الشبعة، ولو لُقْمَتَيْنِ، ولا تتملأ! فذاك دواءٌ لايحتاجُ معه إلى طبيب!».

وذُكِرَ هذا عن الرَّشيد، إنّه قُدِّمَ بينِ يديه قَصْعَةٌ بطعام، فلما أكل قَال: «هذا غذاءٌ ودواءٌ! فما زِيدَ عليه كان داءً!» وعلى أنّه لكلِّ امْرِئٍ من دَهْرِه ما تَعَوَّدَ.

وقَال النبيُّ – عليه السلام –: «أصْلُ كلِّ داءٍ البُرودة، وأصْلُ كلِّ دواءٍ الحِمْية!»[1]

وقيلَ: «أقْلِلْ طعامًا، تَحمَد منامًا!» وقالت الحُكماءُ: «إنَّ الكثرة والقلّة عَدُوَّا الطبيعة».

قد نَرَى[2] فى الخَمْرِ ما، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثير، لم يجب أن يُقال له: «قَلِّلْ!» ولا من شاربٍ وافَقَهُ القليلُ، أن يُقال له: «ازْدَدْ!» غيْرَ أن العاقِل يَرَى ذلك بحسِّه، ويعلم مالم يُوافِق طَبْعَه، فلا يزيد عليه شيئًا.

وسُئِل حكيمٌ عن الخَمْر، فأعابَها، إلاّ أنّه قال: «إذا أخذتَ كَيْفَ يَنْبَغِى ومع من يَنْبَغِى، فلا بأسَ بها: تفرح النفس، وتذهب بالهموم، وتشجِّع، وتحمل على الفضائل. والتزيُّدُ منها شرٌّ كثيرٌ، *[ق ٧٣ أ] كما أنَّ التقليل منها خيْرٌ كثيرٌ!».

وشبَّهوا كثيرَها فى الأبدان مثل التُّرْمُوس الذى إذا أكْثِرَ عليه بالماءِ وطال مَكْثُه، استحال وذهب نورُه.

وقيل فيها:

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْراطاً ... وبُقْراطُ له عَقْلُ
فَفَضْلٌ مالَهُ شِبْهٌ ... وطِبٌّ مالَهُ مِثْلُ
فقُلْتُ الخمرُ تعجِبُنى! ... فقال: كثيرها قَتْلُ!
فقُلْتُ: كَمْ تقدِّرُ لى! ... فقالَ، وقَوْلُه فَصْلُ:
وَجَدتُ من طبائع ... أرْبَعَةً هِىَ الأصْلُ
فأَرْبعَةٌ لأَرْبعَةٍ ... لكلِّ طبيعةٍ رِطْلُ

هذا ماقالَهُ الناسُ. ولاخيْرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعة. ولابأسَ بعلْم الشيءِ عند الحاجة إلى وضْعِه، وبعْضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِه لمن ابتلِىَ بها أن يأْخُذَها علىَ حقِّها.

وقالوا إنه ممَّا يُوَلِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّرْجِس، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِير وشمَّ البَنَفْسجَ ممَّا يُوَلِّد الحزْنَ.

وقالوا إنّها من أكبر أدْوِيَة السَّوداءِ فى تلك الساعة، وتعقُّبُ سَوْدَاءَ أشرُّ من الأولَى إن أكْثِرَ منها. والعِلَّة فى ذلك أنّه لاخيرَ فيها إلّا مارقَّ منها، وحَالَ عليها الحَوْلُ، وعطرَت

(١) متفق عليه.
(٢) أصل: «تروا».

رائحتُه، وهى حارّةٌ يابسَـةٌ، ثمّ تسـتحِيلُ إلى البرد عن شـرب الماءِ للضرورة، وتَجِدُ الرطبة منها، كَبِدِيَّةَ اللَّوْن، غليظـةَ الرَّوْنَـق، مُوَلِّـدَةً للـدَّم والنَّوْم؛ وهى الموافِقةُ لزمان الشتاءِ. ولْيَتَّخِذْ منهـا لكلِّ زمان مايوافِـقُ طَبيعَتَه، ويخالف هَواهُ. ورأوا أنَّ أخْذَها بعد الغَدَاء بسـاعةٍ، ليَنامَ الإنسـان قَبْلَها ويُـرْوَى من الماءِ أنْجَعُ له وأنْفَـعُ. وكذلك الجماع أنْفَعُ أن يكون بَعْدَ سـكونِ الأعْضاءِ وتودُّعِها بالنوم بعد الطعام، فى صبيحة تلك الليلة، عند تملِّى الأعْضاءِ، واحتياجِها إلى إخراج الفضول ونشـاطِها. ولايكون ذلك عن * [ق ٧٣ ب] تكلف، حتَّى تميلَ الطبيعةُ إليه، لاسـيمًا إن ساعَدَتْها النفسُ؛ ويوافِق ذلك الشَّـخْصُ هَوَاهَا؛ إذ النفسُ والجِسْمُ شَكلان مُرْتَبطـان: متى اعتـلَّ أحدُهما، تَضعْضَعَ الآخر؛ ومتى صَحَّا جميعًـا، قَوِيَتْ المُنَّة وتكاملت الصحَّة . ويكون ذلك أسرَعَ فى البَاهِ، كما أنَّ المَعِدَةَ متى اشتهَتْ شيئًا، فقد ضمنَتْ هَضمَه.

قال جَالِينُوس: «إنَّ المريض الذى يشتهى أرْجَى مِنِّى للصحيح الذى لايشتهى !» ألا تَرَى أن الطبيب الماهر، إذا عانى العليلَ، وقاسَ بين دَوَائَيْن يكونُ نجعُهما واحِداً، قَصَدَ إلى الذى يعلم أنَّ النفسَ عليه أقْبَلُ فى حال الصحَّة؛ فَيَعتِمده . ألا تَرَى أنَّ شـراب السَّـفَرْجَل وشراب السَّـكَنْجَبِين فِعْلُهما واحِدٌ؛ غير أنَّ شـراب السَّـفَرْجَل ألْيَقُ بالنفس، وهى إليه أشْوَقُ؛ فيرى الحَكيمُ تَوَقَانَه إليه زائداً على فى الدواءِ، وينجح فيه بالشهوة.

ولم يَرَوْا لشـرْب الخَمْرِ عند العطش شـيئًا أنْفَعَ من شـرْب الماءِ، للتَّوَقانِ وإطْفاءِ الحرارة وقَمْع الأبْخرة.

ولْيَسْـتَعمِل من الطعام ما خَفَّ، ولو عاوَدَهُ فى النهار مرَّات؛ فهو أسـرَعُ لهَضمِهِ، وأشـهَى لِغُدَتِـه، وأخَـفُّ على جَوَارِحِـه . قال بعضُ الحُكَماءِ: لأنْ أتملأَ شـراباً أحَبُّ على من أن أتملأَ طعاماً! فإن التُّخمَة، إن تعقَّدَتْ، قَتَلَتْ؛ وإن تحلَّلَتْ، أسـقَمَتْ.» قال بعضُ الفَلاسِـفة: «خفِّفوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات، لتصعَدَ إلى عالَمِها الأكْبَر، فتأتيكم بعجائبِ ما هُنالِكَ !» .

وقالوا فى الشـراب إنه يُسَـلِّى الهموم. وأنا أقولُ إنَّها تَهَيِّجُ الهموم، إنما هو مانزل عليه: إن ألِفَتْ سـرُوراً، حَرَّكَتْ منه ما سـكن الإنسـان عنه؛ وإن ألِفَتْ هُموماً، ذكرَتْ بما هو فيه وأشـدَّ منه، وفتقَتْ إلى طُرُق السوءِ . والهَمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوءٍ؛ فذاك الذى لا يُسْلِيه عنه شىءٌ، ولا يأتيه منه نعاسٌ؛ والغمُّ إنما يكون بما مَضَى؛ فرُبَّما سلَت الخمْرُ عن بعض ذلك . ولا شـىء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكرِ ما خلَفَ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تَعلُّمًا أكثرَ * [ق ٧٤ أ] من مطالَعة ما مَضَى.

ومـن الجُهَّالِ مَنْ يَعْتَقِدُ أن العَشـاءَ قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أجْـلِ التمَلِّىءِ؛ وأنا أقولُ إنَّـه يمنعه؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبْخِرة وكلُّ حارٍّ مانِعٌ للنوم، كما أنَّ البرد فى الدمـاغ مُوَلِّدُهُ . ألا تَـرَى أنَّ الأدمِغَة الباردة كثيرةُ النزلات من الرطوبات، وتوَلِّد النسـيان ؟ والسـريعُ الحفظِ قد يكون فى دماغه مَرَارةٌ ويُبُوسَـةٌ ؟ وقلَّ ماترَاهُ يَنْزِلُ، وإن كان، فلا يدومُ ذلك به؛ فإنها من فَضَلات الدماغ . وكذلك الجاحِظُ العَيْنَين يُعرض عن ذلك، وَقلَّما يَسْلَم من

الأمـراض والتعَرُّق. والغائرُ العَيْنَيْن عِنْدَهم أصَحُّ بَصراً. مع أنَّها من صفات الجَمال. إذا قالوا: «هو الغائرُ العَيْنَيْن، الأسِيلُ الخَدَّيْن، المُشرفُ الحاجِبَيْن».

كذلك قَوْلى، وإنه لايتمُّ لأحَدٍ جمالٌ إن خَشنَتْ أطرافُه وامتلأَتْ خَدَّاه. وكانت العَرَب تمدح فى الإنسـان كِبَرَ رأْسِه، وتقول إنَّه عَلامةُ السُّؤْدُدِ. وَيمْدَح الغُلامَ الأَبْلَهَ العقُول.

وقيـل: الجمال فى اللسـان، مـاكان ناطِقاً بالصَّـواب، ولاخيْرَ فى التَّهَـوُّر والإكثارِ بما لا يحتاج. ووَصَفَ بعضُ الشعراءِ رجلا فيما رثى به، فقال:

لَقَدْ وَارَى المقابرُ مِنْ شَريكٍ ... كَثِيرَ تَحَلُّم وقَلِيلَ عَابِ
صَمُوتًا فى المَجَالِسِ غَيْرَ عَيٍّ ... جَدِيراً حينَ يَنْطِقُ بالصَّوابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

وممَّـا وَصَفْنـاه مـن عِلْم التـنجيـم، احْتَجَجْتُ يومـاً ببَعْضَ المنجِّمـين أنَّهم على غير شـيءٍ، فقـال: إن كُنْتَ نَقمتَ بأنَّنـا نزعم أنّ الكواكِبَ فاعِلَةٌ أو يَعْلَـم أحَدٌ الغَيْب، فَمُحَال ذلـك، لايدَّعِيـه أحَدٌ، غَيْر أنَّا نقولُ بأنَّها مُصرِّفَةٌ. ألسـت تقول فى الشـمس إنَّ الله خَلقَها ضِياءً ؟ فكذلك أقول فى النجم السـعيد أو النحيس إنَّ الله خَلقه لذلك، ثمَّ لايَعْلَم كَيْفِيَّة هذه السعادة وصورتَها غير الحَمَلة، والله أعْلَمُ بما يَتَهَيَّأُ منها.

«وليـسَ منها شـيءٌ إلّا مُوافِقٌ للشـرائع إذْ النَّصْبَةُ كلُّها مخلوقةٌ مـن مُدَبِّر واحِد، لا إله غَـيْرُه، فمَتـى كان فى العالَم دَوْلَةٌ أو مِلَّـةٌ، لم تدلَّ النجوم على غَيْرهـا، إذ الحُكْم مِنْ لَدُن الواحِـد *[ق ٧٤ ب]. فـأَوَّلُ مانَبتَدِئُكَ به أنَّه ما من طالِع القِـران مِلَّةٍ ومُوْلِدِ نبيٍّ إلّا وقد شاكَلَ، واتفقَتْ له من السعادة فى الهيئة ما خرج به من القوَّة إلى الفِعْل.

«وأُخْرَى. ألَيْسَ تقولُ اليَهُودُ إنهم زُحَلِيُّون ؟ لا شَـكَّ فى ذلك ! ألا تَرَى اتِّخاذَهم السَّبْتَ عِيـداً، وهـو لزُحَل، وأخلاقَهم كلُّها مُطابقـةٌ لِمَا يدلُّ عليه زُحَـلُ مـن البُخْل، والـقَـذَارة، والخُـبـث، والمكْر، والخَديعَة ؟ ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهم شَمْسِـيُّون، لا امْتراءَ فى ذلك! ألَا تَرَى أنَّ يومَ الأحَد جُعِلَ لهم عِيداً، وهو يَوْمٌ شَمْسِـيٌّ، وطبائعَهم موافِقةٌ للشـمس، وصُوَرُهم فيها: البَيَـاض والحُمْرة والشُّـقْرة، والرَّهْبانيَّة فى عُبَّادِهم لعُقْم الشـمس ؟ ثُمَّ المسـلمون: أَلَيْس هم زُهَرِيِّين ؟ والزُّهَرة دالَّة على الدين، والنظافة والـمُروءة، والضوء، والطهر من الجنابة، وإباحة النكاح، والإماءِ، والطيب والزينة ؟ ثم أُمِرْنا باتِّخاذ الجُمُعة عِيداً، وهو يوم الزُّهَرة !

«ثُمَّ انْظُرْ إلى بُروج الفلك. تقولُ إنَّ السابعَ بَيْتُ العُرْس. وأكْثَر مايَسْتَعمِل الناسُ النِّكاحَ فى شـهر رَجَب، وهو السـابع من أشْـهُر العام المؤرَّخ به، الذى أوَّلُه المُحَرَّم، والثامِن من البروج بَيْت الموت والمواريثُ، وشهرُ شَعْبان الثامن من الأشهُر الذى تُنْسَخ فيه الآجال، والتاسع من البُروج بَيْت الدين والسَّـفَر، وشـهرُ رَمضان الـمُعَظَّم، تاسعُ أشْهُر العام. وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرع، والعاشِر بَيْت المُلْك والسُّلطان. واتُّخِذَ العاشِر من الأشهُر عيداً يَظْهُر فيه بهاءُ الدين وعِزُّه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [1]. وأقسم ﴿بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [2]. وهيَ الكواكِبُ السيَّارة .. ويزعمونَ أنَّ زُحَل هو النجم الثاقِب . لأنَّه يفتق بضوئه سبع سَمَوات. وأنَّه أعْظَم من الأرض ستَّة وتسعون مرَّة؛ وغَيْرُه من الكواكِب قد وصفوا قسمتَها من العظم على الأرض. غير القمَر وعُطارِد، فإنَّها أصْغَر من الأرض . وأنَّ الشمس أعْظَمُ من الدُّنيا مائة وثمانون ضِعْفاً . ولـكلِّ كَوْكب منها مُدَّةٌ * [ق ٧٥ أ] يقطع فيها الفلكَ. ورُتْبةٌ هَيَّأها له بارِئُه – عزَّ وجلَّ – ؛ وإنَّ العالَمَ السُّفْلىَّ مُتعلِّقٌ بالعُلْوىّ . مؤثِّرٌ به بإذْنِ رَبِّه. »

ومنهم من قال: لأىِّ شىءٍ تُنْسَبُ إلينا الزَّنْدَقة ؟ ولم نُنْكِر الخالِق؛ وإنما تكلَّمْنا فى المخلوقات؛ فيُوصَف كلُّ مخلوق بما يُدْرِكه عِلْم الإنسان . كواصِف رَجُلٍ أو شَجَر أو جَبَل! »

وذُكِرَ عن حَكيم أنَّه رُئِى بالـمُصْحَف عن يمينه . والأَسْطُرْلاب عن شماله؛ فسُئِلَ ما الذى أوجب جَمْعَهما لدَيْه؛ فقال : «أتْلو فى الـمُصْحَف كلامَ الله . وأعْتَبِرُ فى الأَسْطُرْلاب خَلْقَ الله ؛ وعلم الهَيْئَة عِبادةٌ ! »

وإنه لـمَّا نُصَّ علىَّ هذه المقالة؛ كان جوابى عنها: «كلُّ ماتقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّة بما احْتَجَجْتُمْ به؛ غَيْر أنكم خالَفْتُم القرآنَ فى قولكم «يكون» و «لايكون»؛ والله يقول ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [3] فقالوا: «لَسْنا نقطع عن الأمر أنَّه يكون ؛ ولا نقول إلَّا أنَّه يدُلُّ . ونأتى بحُجَّةٍ إلَّا يتمُّ شَرْحُها . اللَّهُمَّ! إذ قُلْنا: هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها . ومنَّا مَن يتحرَّى، فيعدل ولا يتكلَّم على شىءٍ . وقَوْلُنا هذا كقَوْل من رأى سحَاباً ثقالاً؛ فيقول: «هذه تدُلُّ على الماء الكثير». هَلْ قائلُ ذلك مُلْحِدٌ؟ ثمَّ الله يفعل مايشاءُ.

وهذا أيضاً ممَّا قدَّمْنا ذِكْرَه صَدْرَ الكتاب أنَّ كلَّ مفتون مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ؛ والله يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [4]. على أنَّ الحقَّ عليه نورٌ لا يخفى؛ تقول العَرَب: «الحقُّ أبْلَج، والباطِل لَجْلَج» .

قال المأمون: «لم أغْتَبِطْ بأيَّام السرور مُذ عَلِمْتَ التنجيم، ولا استمريتُ الطعام مُذ عَلِمْتُ الطِّبَّ، ولا طابَ لى النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤْيا! » .

٩٠ - مسائل فَلَكيَّة

ويزعمون أنَّ الليل ظِلُّ الأَرض، ولا ضياءَ غير الشمس؛ فبإشْراقِها على الأرض عند طلوعها، كان النهار؛ وبدخولها تحت الأرض، رجع الظِّلُّ طالعاً، فأَظْلَمَ الليل.

وبَعْضُهم من قرأ أن الشمس تجرى، لامُسْتَقَرَّ لها، إذ يقولون: إنَّ الشمس

(١) سورة البروج الآية ١.

(٢) سورة التكوير الآيات ١٥ –١٦.

(٣) سورة النمل الآية ٦٥.

(٤) سورة الكهف الآية ٥٤.

لاتستَقِرُّ * [ق ٧٥ ب] بمكان، إذ لايصحُّ أن يكون المكان إلَّا أعظم من الذى تَحِلُّ فيه؛ ولا أعظم من الشمس إلَّا الفلك، والفلكُ دَوَّارٌ.

وقالوا فى الكسوف: إنَّ الكلام فيه مايمكن إلَّا بالوقوف على صورة الهَيْئَة، ولولا ذلك، لم يَجِد القول. وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذى حُدَّ أمْرُهُ وَقْتَ انْجِلائِهِ ومَبْلَغ المُنْكَسَف منه؛ وإن الشمس فى ذاتها لا يعرضها شىءٌ غير أنَّ جرم القَمَر يحول بَيْنها وبَيْنَ الأرض متى قابَلها؛ وكُسوف القمر من مُقابلة الأرض.

وزعموا أنَّ ضوءَ الكواكب والقمر من الشمس، وأنَّها أجْرامٌ شَفَّافةٌ تكْتسِى النور من النَّيِّر الأعظم؛ فيبدو ضوءها بغَيْبِها، ويطمس عليها طلوعها. وهو قول الشاعر فى ذلك:

لِأَنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكِبُ ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

٩١ - تحديد العلوم الطبيعيَّة والطبّ

وقال أَهْلُ الطبيعة: إنَّ لاحَيَوان إلَّا بالحرارة والرطوبة، فأَيْنَ ما كان الماءُ والشمس تولَّد فيه الحَيَوان، وقد يكون من غير نسل. ونَرَى حَيَواناً يكون فى جوف صَخْرةٍ صَمَّاءَ مُلْمَلَمَةٍ؛ والله يخلقُ مايشاءُ. قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١). وذُكِرَ عن الحجَّاج أنَّهُ رئى فى المنام على حالةٍ حسنةٍ؛ فسُئِلَ عن ذلك، على ما كان من جوره؛ فقال: «رَحِمَنى رَبِّى بكَلِمةٍ قُلْتُها: مَرَرْتُ يوماً على زرع؛ فقُلْتُ: لو شاء الله، لأَنْبَتَهُ فى النار واليَقَاع!» «أى فى الصحارى التى لاماءَ فيها» وقال تعالىَ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

ولم يبلغ الإنسان بعِلْمِه أكْثَر من معرفة الطبيعة: علاجُ ضعيفٍ لايرفع قدراً أكْثَر من تقويم المزاج عند انحرافه؛ فعالجوا الأبدان بما أدرَكَتْهُ، عقولُهم، وجرَّبوه بأعمارهم، وتركوه سلفاً فى الأواخر. فكلٌّ يُعَانى على مقدار تَجْرِبَتِهِ....(٣) ولايوافِقُ القِراءَةَ حَظًّا حسناً ومَعْرِفةً بهذا الشأن، فقد أَخْطأَ وتكلَّفَ. * [ق ٧٦ أ] وقالوا إنَّ الدواءَ المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب: يُنقِّيه ويحلقه؛ فاستِعمالُه فى زمان الخريف أَوْلَى فى سُلطان السَّوْداءِ فيه، كما أنَّ استعمالَ الفَصْد فى زمان الربيع تخفيفٌ لايحظى من أخرج فيه الدم.

وإنَّ أَشْبَهَ شىءٍ الأغْذية بمزاج الإنسان: فالخُبْزُ النَّقِىُّ واللحم الثَّنِىُّ والشراب الحَوْلِىُّ؛ فمَن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قوىَّ البِنْيَة.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان فى زمان المسيح - عليه السلام - : «إنَّ الله أرسل نبيًّا يبرىء الأكْمَه والأبْرَصَ!» فقال: «وأنا أعالِجُ الأكْمَهَ والأبْرَص!» فلمّا قيل: «يُحْيى الموتَى» لم يُصَدِّق ذلك حتى رَآه مُعايَنةً حَقًّا.

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٠ -٦١.

(٢) سورة النحل الآية ٨.

(٣) بياض نحو كلمة فى الأصل.

٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجنّ تتكلّم

وتُنْكِرُ الحُكَماءُ مايزعم الناسُ من رُؤية الجِنّ، وتُكَذِّب من يقول بسماع نُطْقِهم أو كلامِهم على أَلْسِنة البشر. وتقول إنَّه لايتكلمّ إلا من له لِسانٌ وآلةٌ تُعينه، وإلَّا، فكَيْف تنطق ريحٌ تهبُّ ؟ إنّما هو بِرْسامٌ يعرض في دماغ مَن يَدَّعى ذلك؛ فيتصوَّر في دماغه أمْرٌ ما يخيَّل له بفساده أنه يتكلَّم ويسمع، ماليس منه شيءٌ على حقيقةٍ؛ فيَهْذِى هذياناً، ضَرْباً من الروحانية التى يكون الإنسان، مُفَكِّراً في بلدةٍ أو شَخْصٍ أو صورةٍ من الصُّوَر: إذا حَدَّثَتْهُ نَفْسُه بها، صار كالناظِر إليها، وإن سدَّ عَيْنَيْهِ. أو كالنائِم يَرَى ماتُحَدِّثُهُ به نفسه، أو كالناظِر في المِرْآة يَرَى ماليس بمَوْجود. هذا، لعمرى مَذْهَبٌ خُولفَ به طريقُ السُّنَّة. والله يقول: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [(١)]. وقَوْلُه: ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [(٢)]، وهذا دَلِيلٌ على أنَّه لايكون النطقُ إلَّا بِلِسانٍ، ولا المرويَّة إلَّا ببَصَرٍ ليس على خِلْقة الإنْس، كلٌّ على جِبِلَّةٍ، يَرَى ويسمع ويعقل. ولولا ذلك لم تَدِنْ، ولا سَبَّحَتْ، ولا اهْتَدَتْ لِما يُسِّرَتْ له إنَّ الطَّيرَ التى هى عندنا لا تعقل وَصَفَها الله بمعرفَتِه، فقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [(٤)]. ووَصَفَ بالسجودِ النجم * [ق ٧٦ ب] والشجر والدوابَّ التى هى عندنا جَوَامِدُ. فكَيْفَ أحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِيْن بَشَّرا بالثواب، وأنْذَرا بالعقاب، وخُوطِبَا بما خُوطِبَ به الإنْس. وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [(٥)].

فمن لايؤْمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون، فلا يؤْمن بالملائكة، ويحتاج أن يكون قولُه هذا نسقًا فى كلٍّ من ليس له لسانٌ وجَوارِحُ أنَّه لايتكلَّم بجَوارِحِ الإنسان؛ فالملائكة لاتوصَف بيَدٍ ولا لِسانٍ؛ وهُم المنْزَلون بالوَحْى على الأنبياءِ والمُخاطِبون لهم بالكُتُب والسُّنَّة: فلا يؤْمن بالرسالة مَنْ يَتمَذْهَبُ بهذا.

٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب

وقالوا: إنَّ الجِماع من أكْبَر أدْوِيَةِ السَّوْداءِ لسرورِ تلك الساعة؛ ودُخول الحَمَّام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فيه. مَنْ سرَّه أن تقرَّ عينُه حياتَه، فلْيتمتَّعْ ما وَجَدَ سهولةَ شَهْوَتِهِ؛ ومَنْ اغْتَنَمَ ساعةَ لذَّتِهِ؛ فقد غَنِمَ؛ ومن أخَرَّها، فقد عَدِمَ ! فإن الإنسانَ ابنُ الآنِ!

وقالوا فى الجلوس على المِيَاه والرِّيَاحِين مما يُسَلِّي العاشق ويتداوى من أحزانه به.

---

(١) سورة النمل الآية ٣٩.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٧.

(٣) سورة النور الآية ٤١.

(٤) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٥) سورة الأنعام الآية ١٣٠.

وأمَّـا أنـا، فأقولُ إنَّ ذلك يزيد فى تَذْكارِه؛ ونقيـم البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولع إلَّا بما استَحْسَـنَتْ؛ فكلُّ مُسْتَحْسَـنٍ تَراهُ يُخْرِجُها إلى ذكر الأسْـنى فى خاطِرِها، وكلُّ حَدِيثٍ إنما يسـوقه إليه؛ وكلُّ ما زِيدَ تَذْكاراً زاد شَـوْقاً، فأعْقَبَهُ سَـهَراً وقَلَقاً. والشىءُ لايُعَانَى إلَّا بضدِّه: فكَيْفَ يشـغف بحُسْـنٍ ويُسْـلِيهِ حُسْـنٌ ؟ بل يُوقِظه ويَشْـغَله ! ألاَّ تَرَى أنَّ المكروبَ يتفَرَّج بالسُّرور ، والسُّرورَ، يَضْمَحِلُّ بالكَدَرِ؟

وليس لعاشِـقٍ مُرْزَا بمالٍ ولا أهْلٍ، فيتسـلَّى بما يُذْهِب غُمومَه؛ بل هو من شـأنه فى لَذَّةٍ حلاوتُها مَشـوبَةٌ بحرارَةٍ : وهو حُكْمُ الحلو كلِّه فى المُذَاقَة، لايكون إلَّا مائلاً إلى الحَرارَة ؟ وكذلك فى المُشْتَهات: كلُّ ماتَمَّتْ حَرَارَتُه، طابَ ريحُهُ.

وإذا قـاس حالَ أزْمِنتِهِ التى كانت تَسُـرُّه على ضـروب من حالات الصبوة، لم يَجِدْ فيها مدَّةً كانت عنده أفْضَلَ، وأبْلَغَ فى السـرور، وأهَشَّ للنفس وألْيَقَ * [ق ٧٧ أ] بالحِسِّ وأذْكَى للقلب؛ وأصْفَى مشـرباً، وأهنأ طَعْماً، من المُدَّة، وإنْ كان فيها بعضُ جَوىً؛ فإنَّه «لابُدَّ بعد الشُّهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ»، ودَواؤُهُ، مالا يَرْضاهُ، ولا يختاره بدلاً ممّا هو فيه؛ إن يَشْغَلْه من ذلك خَطْبٌ كبيرٌ، ينسى به ماكان عليه، والذى هو بسبيله عنده أوْلَى.

٩٤- تأمُّلات نظرية وأمثلة يضربها المؤلفُ من قصَّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

والصَّبْـوة تُحْـدِث للإنسـانِ هَيَجانـاً وهُمُومـاً: كالمُهتَمِّ بالنظـر فى ماله، أو المُشَـغَّب بمُحاوَلَـةِ ما يُصْلِحُه؛ فليس كلُّ شـغب ضـارًّا، بل يؤْلم منه مُكابَدة الأعداء ومقاسـاة طَلَب العيش، الذى، إن فتر عنه شَـقِىَّ، لا طَلَب الزيادة فى الرزْق. فإن ذلك يَسْـعَى كالبَطِرِ الذى هو بالخيار فى الكدِّ والراحة.

والنفـسُ تَوَّاقَةٌ: متى سَـمِعَتْ إلى مَرْتَبة، تاقَتْ إلى ما فوقهـا؛ فالعاقِلُ يَرَى أنَّ كُلَّ كَدٍّ وطَلَب دون السَّعْى فى طَلَب ما لابُدَّ منه من قِوام العيش فَخْرٌ وأشَرٌ ورَغْبَةٌ وحِرْصٌ. ولذلك هو الإنسـانُ عن كلِّ شـىءٍ مَسْؤُولٌ، إلَّا عن ثلاثة: طعامٌ يسدُّ جوعَه، وثوبٌ يستر عورَته؛ وبَيْتٌ يكنُّـه من الشـمس. ولو أنَّ لـه الدُّنيا أجْمَع، لم يكن منها زائداً إلَّا حظَّ العَيْن الذى يسـتوى به فيه مع غَيْره من الناظرين، فسـلم من تعباته، وتورَّط هو فى حِسـابه وأوزاره، وماكان إلى انقطاع ونفادٍ. فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فيه؛ لو آلَتْ حالُه إلى السلامة بعد ذهابه، لاعَلَيْه ولالَهُ؛ فكَيْفَ، وهو قد أيْقَنَ بالفَناءِ وبَعْدَه الحسابُ والجَنَّةُ أو النارُ؟

وقال المَسيح – عليه السلام – : «الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فاعْبُروها ولا تَعْمُروها !» على أنَّه لايُوجَد أحَـدٌ يزهـد فى حالٍ كلَّ الزهادة، حتَّى يبلغ منه أمَلَـه أو بَعْضه؛ فإن الزهادة الطبيعيَّة إنما تكون فيما تَكْرَهُ النفسُ، ولابُدَّ من مَيْلِها إلى ما فيه أدْنَى سُرورٍ. والله يقول فى الإنسان، لِعْلمِه

بـه ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (١) . فـكأنَّ الشـيء، إذا أُدْرِكَ انصرفت عنـه النفسُ لبلُوغ نَهْمتِها؛ ومتى تمنَّع * [ق ٧٧ ب] عليها، كانت به أشَدَّ كَلَفًا.

ولقد بَلَوْتُ من نفسى بَعْضَ ذلك، إذ الطبعُ البَشَرىُّ واحِدٌ، لا يكاد يَخْتَلِف إلَّا فى الأَقلّ؛ ولذلك أُمِر الإنسانُ أن يحبَّ لأبناءِ جنسه ما يحبُّ لنفسه، حَظًّا على العَدْل والإنصاف.

وأجِدُنـى فى كثرة المال، بَعْدَ تَمَلُّكى عليه مع ذهابه، أزْهَدَ مِنِّى فيه قَبْل اكتِسَـابِه، مع شُفوفِ الحال إذ ذاك على ماهى عليه الآنَ.

وكذلك شـأنى كلُّه فى كلّ ما أدْرَكْتُهُ قَبْلُ من الأمْرِ والنَهْى؛ واكتسـابِ الذخائر، والتأنُّقِ فى المَطاعِم والملابِس والمراكِب والمبانى، وما شـاكَلَ من الأحوال الرفيعة التى نشأْنا عليها، حتَّى إنّه لم يَبْقَ من ذلك ماتَتَمَنَّاهُ النفسُ، وما لاتظنُّه، إلَّا وقد بَلَغْنا منه الغاية، وتجاوَزْنا فيه النهاية؛ ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكاً، فتطول عليه الحسرةُ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام ! بل تمادَى برهةً من عِشْرين عاماً؛ وماكان قَبْلَهُ يكاد أن يؤَازِيه؛ إذ رُبِّينَا فى حِجْرِه.

ووَجَدْتُنِى، بعد فَقْد هذا كلِّه، على الوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّى على ماسِواهُ من كلّ ما وَصَفْنا، لعُدْمِهِ ذلـك الوقـت؛ وقلـتُ فى نفسـى: «الغايةُ التى إليها يَسْـعَى النـاسُ من أَمْـر دُنْياهم، قد أدْرَكناها، وشُـهِرْنا بها فى الآفاق؛ ولابُدَّ من فَقْدِها، باكِراً كان أو مُؤَخَّراً، بحياةٍ أو موتٍ! فنحسب هذه العشرين عاماً هى مائة عام، إذا تمَّت؛ سَوَاءً، وكأن لم تغْنِ بالأَمْس! ونَحْنُ الآنَ جُدَراءُ بالنظر فيما نَبْتَغيهِ. ولله أن يَقْضِىَ ماشاءَ !» .

وقِيـلَ لرَجُـلٍ حَرَّاثٍ: «هَلْ زرَعْتُـمْ؟» فقال: حرَثْنا. واللهُ الـزارِعُ !» وكذلك ذُكِرَ أنَّه لم يَبْـقَ مـن المُتَوَكِّلين على الله غَيْر المُزارِعين؛ فإنَّهم يدفنون فى الأَرض أقواتَهم ويطلبون فَضْلَ الله وبَرَكتَه.

٩٥ - يتحدَّث المؤلِّف عن أولاده

وكان تدبيرُنا هذا إلْهامًا لينفذ القَدَر، بكَوْنِ مَنْ نشأَ لنا من الوَلَدِ. لم يتبعَّد وقته، ولا كان فى غير مكانه.

(وذكر * [ق ٧٨ أ] الفَلَاسِـفةُ أنَّ الوَحْىَ يتجـزَّأ على ثلاث: كلامٌ وإلْهامٌ، ومَنامٌ؛ وهو قَوْلُه تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (٢).

وقيلَ فى قوله. – عزَّ وجلَّ – ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٣). إنَّما كان وَحْىَ إلْهَام. وكان النبىُّ – عليه السـلام – يقول فى بعض أقسـامه: «لا! ومُقَلِّبِ القلوبِ !» فإنَّها بين يدى الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاءَ لِيُنَفِّذَ فيه أحكامَه وتجرى عليه أقدارُهُ.» .

(١) سورة العاديات الآية ٨.

(٢) سورة النحل الآية ٦٨.

(٣) سورة القصص الآية ٧.

فما بَقِيَ لنا من الآمال غَيْر مالٍ حَلالٍ للمعاش، يغنى عن السؤَال، وعَمَلٍ صالِحٍ للمَعاد، يُنْجى من العِقاب ويوجب الثواب.

وقد كان سُقْرَاط الحكيم يَكْرَه الوطأ مدَّة عُمُره، يَعْتَقِدُ بذلك أنَّه مُهْرِمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناءِ، فقد قيل إنَّ فاعِلَ ذلك مُقْتَبِسٌ من حَياتِهِ؛ فمن شاءَ، فَلْيُقَلِّلْ، ومن شاء فَلْيُكْثِرْ ! ولهذا أرجح الجاحِظُ فى «كتاب الحَيَوان» بأَنَّ الخصيَّ إنما طال عُمُره من أنَّه لا يُجامِع.

وأمَّا أنا أقول إنَّ تلك الساعة التى يستحيل فيها عن الإنْسانيَّة بقَطْعِه إلى الـ.....[1] أشَدُّ اسْتِفْراغًا، وأذْهَبُ لجَوْهَرِيَّته، واقطع لعُروقِهِ من أنَ لو جامَعَ كلَّ يوم فى عُمُره عشر مَرَّات؛ لأنَّ المُجامِعَ مُخْرِجٌ للفضول، وهذا خُرِّج منه الجَوْهَرُ، وفُرِّغَتْ عروقُه، ولُيِّنَتْ لحمُه، وأضْعِفَتْ عُصُبُه، وأرْخَتْ جِلْدَتُهُ.

ولمّا كَبِرَ سِنُّ سُقْراط، وعَلِمَ أنَّه ليسَ بعد الكِبَر إلَّا الموت، جَامَعَ مَرَّةً من عُمُرِه، آخِرَ زمانِهِ، وتأوَّلَ فى ذلك إتْماماً لحكمة البارئ - عزَّ وجلَّ -؛ وقال: «لم تكن حِكْمةُ النسل إلا بهذا الفعل؛ وإنْ أنا مُتُّ تاركًا له أصْلاً، كُنْتُ كالساخِط أو المُعنِّت لِمَا رتَّبَه الرَّبُّ، وعَسَى بذلك نستوجب عقابَه !» ثم قال، إذا حضره الموت: «ما أظُنُّ عيباً علىَّ إلَّا مُجامَعة تلك الساعة !»

وكان من نِعْمة الله علىَّ أن رزَقنى بِكْرَ أولادى ابنةً، لم يَزَلْ قَبيلُنا كلُّه يتبرَّك بها، ويكْرَه أن يكون بِكْرُهُ ابناً ذَكَراً. وقد رأينا فى سَيْف الدولة أبينا - رحمه الله - أن لم تتمَّ له فرحتُه بذلك؛ على أنَّ هذا * [ق ٧٨ ب] ليس على العموم؛ وإنمَّا ذَكَرْناه للتفاؤُل، إذ قال نَبيُّنا - عليه السلام - : «تَفَاءَلُوا ولا تَطَيَّروا !»[2] فَنَحْنُ قد تَفَاءَلْنا، لاسيمَّا بما شهر عند أهالينا وقالوهُ قديماً؛ ولو كان ضِدَّهُ، ماذَكَرْناهُ، للنهى عنه.

ثمَّ رزَقنا بعد هذا ابْنَين؛ فلم نُبَشِّرْ بالاثْنَيْن، كَىْ لايجتمع علينا حزنُ ذلك مع مانَحْنُ فى سبيله، لُطْفاً من الوهَّاب وإنعاماً وإحساناً.

فتَعدادُ نِعَم الله شُكْرٌ لها، والإعلانُ على وَجْهِ الشكر والتَقوى، لا على الفَخْر والخُيَلاءِ، من أوْجَب ما يأْخَذ به الإنسانُ نَفْسَه. قال النبىُّ - عليه السلام -: «أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، ولا فَخْر؛ وأنَا أفْصَحُ العَرَبِ، ولا فَخْر!»[3].

٩٦ - توجُّه المؤلِّف الحديث إلى قُرَّائه، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهتِبالِنا إلى وَضْع هذا الكتاب، وهو لَعَمرى بمنزلة الابْنِ الذى يُبْقِى ذِكْرَ أبيه فى العالَم، لنُبَيِّن به عن أنْفُسنا ما أشكل على الجاهِل من مقالةِ سوءٍ (فى دَوْلَةٍ) زَعَمَ الحاسِدون أنَّ منها كان سقوطُنا. ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَها لِمَا نرجوه من ثوابنا، وحَسَناتِه

(١) بياض كلمة فى الأصل؛ ولعله: «الحيوانية».

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

لبُعْدِنـا منهـا ونَزَاهتنا عنها. وإنّما وَضَعْنا هذا الكتاب لمن أشـكل عليه الأمْرُ من أهل الفضل والحقِّ، المُحِبِّين[1] لله فينا، الوادِّين[2] الخَيْرَ لنا، ولا يزيد البُغَاةُ إلّا طغياناً وتَعْنِيتا.

فنَرِدُّ على أهْلِ الإنصاف وذوى الألباب:

«إنّكم أنْتُم المخَاطَبُون من الله ورسوله ! فعَلَيْكم اعْتِمادُنا، وإيَّاكم خاطَبْنا، ولكُم ماتكلَّفْنا ! فلا عَمِي بكم عن المعرفة تحيدُّكم عن المِنْهاج، ولا شَـنَـآن لِتَرَةٍ سَـلَفَتْ تُحرّفكم إلى نفثات الحاقِدين! والله يجعلنا فى الجنَّةِ إخوانا، كما جَعَلَنا على الخَيْر أعواناً!» .

ونَرُدُّ على من اعْتَرَضَ جَهْلاً أو حِقْداً:

«اخسأ بِجَهْلِك، ومُتْ بغَيْظِك! فلَيْسَت الأقدارُ جاريةً على اختيارك، ولا أنت المُخاطَب ! بل تأْخُذ بأَدَب الله تعالى لنبيِّه – عليه السلام – فى قوله» :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [3]. وهل تنقم، أيُّها الطاعِن لنا، أن ورِثْنا مُلْكاً عن آباء كِرام، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمُرك كلِّه؟ إذ قالت * [ق ٧٩ أ] العُلَمَاءُ إنَّه من عاش ذا فَضْـلٍ على نفســه وأصحابه، فهو، وإن قَصُرَ عُمُرُهُ، طويـلُ العُمُر، مع أنَّه كان فى طاعةٍ لـم تُوصَف مقدماً، بحمد الله، بجورٍ ولا طغيانٍ، ولا سَـفَكْنا دَمـاً، ولا غَصَبْنا مالاً . وكانت مُدَّتُنا فيه نحو من عشرين عامًا خَيْراً من سِنِينَ، إذ لَيْلة القَدْر خَيْر من ألفِ شهر. وتمامُ المدد على قديم الدَّهْر عادةٌ لاتُسْـتَغْرَب لنا خاصَّةً . ولابُدَّ من الفراق! فلله الحمدُ إذ لَم نفقدها بفَقْد عقولنا ولا أدياننا، ولا تمَّتْ بنفادِ أعمارنا: فيَوْمٌ من عُمُر الإنسانِ يذكر الله فيه خَيْرٌ من تَمام عَمَله؛ ومَيْتَةٌ على بلاءٍ وتذكارٍ خَيْرٌ من مَيْتةٍ على فِتْنةٍ غَفْلَةً.

٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة.

ثمَّ أضْرَبْتُ عن وَصْف كلِّ جميلٍ فَعَلْناهُ، وحَزْم اسْتَشْعَرْناهُ، وخِدْمةٍ للدولة تكلَّفْناها. وطَلَبْـتُ بُنَيَّات الطريق، وتَتَبَّعْتُ ما لاعارَ فيه علـى المِلْك . ولا نُقْصانَ فى المَمْلكة، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشـغل كى تعقب نَشَـاطاً، وَعمَّا دُفِعْنا إليه تَسْـلِيَةً . فقد قالت الحُكمـاءُ : «تَـرْكُ اللذات يُعْقِب البَرْدَة، ويؤثِر فى الجِلْـد أدْوَاءَ مُنْكَرَةً . وقيل : إذا لم يكن للمرءِ على البقاءِ مَقْدُرَةٌ، فَلْيتمتَّع؛ فإن تَرْكَ ذلك للنفوس.

فهَيَّجْتَنـا بِلَفْظـك، وأخْرَجْتَها مـن حيِّز الهَزْل إلى الجدِّ، وكُنْتَ كَجَار سُـبَبَة: إن رأى حسنةً، كتَمَهَا، وإن رأى سِيِّئةً، أذاعَها . فطَفَّفْتَ وأرْبَيْتَ إن افْتَرَيْتَ، وما أَدَعْتَ هذا، وأنت تَعْلَـم أنَّه لم أكُن مخلوعَ العذار، ولا أخلْـدَتُ إلى راحة توجب الغفلة، كالذى صَنَعَ من كان قَبْلَنا من الملوك، وتَعَفَّفْنا عن الدماءِ والأموال والحُرم!

---

(١) أصل: «المحبون» .

(٢) أصل «الوادون» .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

ولـم يَبْـقَ لك ما تقول: «إنّما كان صاحِـبُ غَرْناطة حريصاً على جَمْـعِ المال، مُحِبًّا فى الحِسان، يُنادِم الصبيان !» (وإذاً) لم تُحْسِن الرويّة، ولا ظَنَنْتُه فكراً.

أَلَسْتَ تعْلَم، أيُّها الجاهِل، أنَّ المِلكَ لا ينتَفِع من المال إلّا بما كان أوقاراً ؟ وهَل استوجب المِلكُ إلاّ بذلك ؟ وكَيْفَ لا يحرص على صيانةِ عِزّه والعُدَّةِ على عدوّه ؟ ما أَنْسـاكَ لو عَلِمْتَ أنّه مَنَعَ من حقٍّ أو أعْطَىْ فى غَيْرِ ما يجب ؟ فقُلْ مَتَى ضاع مَعْقِلٌ، أو رفض * [ق ٧٩ ب] جُنْداً، ودخلَتْ داخِلةٌ من التقتير أو المنع ؟ أو مَتَى شـكا رجلٌ من المسـلمين أنّه أخَذَ مالاً بغَيْرِ حقّ ؟ لم تَسْتَطِعْ على تزوير ذلك! فالأَغْلَبُ يعلم صِحَّته . وأكْثِرْ من قَوْلك متى خرج من عنده شاعِرٌ بصِلَةٍ جَزْلةٍ، أو متى خرج (مادِحٌ) بكسوةٍ سَنِيَّةٍ: أمْرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار، إذ العَمَل به من الأدْبَار.

وأمّـا مُنادَمة الصبيان، فإذْ لم يكن بُدٌّ من اسـتعمال شـيءٍ مـن الخَمْر، التى قد تاب الله علينا منها، فما لِلعُقار والزِّيَار ؟ ليس هذا مَجْلِسَ حُكْم : فيُتَخَيَّرَ له ذَوو الأسـنان، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأْيٍ، فيُشـاوَرَ فيه أَهْلُ العِلْم، ولا مَيْدانَ حَرْبٍ، فيُدْعَى إليه أنجادُ الفُرْسـان! ولكل وقتٍ حِكَمٌ:

من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِهِ، فقد جَهَلَ . ولم نكُنْ مع هذا نأْخُذُ معهم فى جِدٍّ، ولا نُمَكِّنُهم من أمْرٍ، ولا نُنْهِضُهم إلى غَيْرِ طريقَتِهم ؟

والمُسْـتَعْمَلُون لخِدْمة الدولة مَشْـهُورُون؛ مِمَّن له حنكة ودربة : والخديمُ لايكون نَدِيماً : كَيْفَ تَصُول اليَوْم على من اطّلَعَ على عَوْراتِك البارحة، إذ السُّكر عورةٌ ؟ أم كيْفَ تأمُرُ بخِدْمةِ الجُنْدِيَّـة والشـدَّةِ عليه في الخروج مَنْ تَعاطَى معك الـكأسَ، وكثَّر معك المزاح والعَرْبَدة ؟ ثمّ تطلُبه لخِدمَتِك، فتَجِدُه عَشُولاً عمَّا يصلحك مَشْغُولاً .

وبغَيْرِ هذا كلّه، فإن الدُّوَل الكبارَ لم يَزَلْ فيها الغِلْمَانُ وأبناءُ الصنائع صِغاراً وكِباراً، عَبيداً وأحْـراراً، وهـم بين يدى الرئيسِ جَمَال، وعلى خِدْمَتِه أعْوانٌ؛ ويتصرَّفُ الصغيرُ السـنِّ فيما لاينبغى للمُسِـنِّ أن يتولّاهُ . ولكُلٍّ دَرَجَتُهُ ورُتْبَتُهُ . وهَل المُلْكُ والمالُ إلا للتزَيُّنِ والتجمُّل به، وانتِخابُ الحِسان منهم تليقُ بهم الكسوةُ السنيَّة والمراكِبُ القارهة ؟

وأخُوكَ من وَاتَاكَ، إذ يتعبّد بمالِكَ من شئتَ يتعبَّد (خِدْمَتِكَ من) حُرٍّ أو مَمْلوكٍ . وإنَّ ابْنَ الإنسـان، إذا لم يَصْلُح له .... إن يَقُلْ هذراً، أىَّ عَمَلٍ وَلّيْناهُ على بلدة، أو صرَّفْنا إليه حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إلّا ما وَصَفْناه، لا أدرى غَيْره * [ق ٨٠ أ] وإلّا .... فتكون مُجْرِحاً، ولإشـارَتِكَ عاضداً، أو تكون قاذِفاً مُسْتَوْجَباً[١]!

جَعَلَنـا الله وإيَّاكَ عن الشـرِّ مُعْرِضيـن، وبطاعته عامِلين ! إنَه أكْـرَمُ الأَكْرَمين ! لا رَبَّ غَيْرَه، ولا إلهَ حَقٍّ حاشَاهُ !

كمل الكتاب. والحمدُ لله . وصلّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً.

---

(١) وقع خرم ومحو كثير فى آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه.